برتراند رسل
في الثمانين

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

إنّ الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

هكذا قال الشاعر العربي حين بلغ الثمانين ، وعجزت حاسة السمع عن أداء وظيفتها بحكم الكبر . ولقد كانت الثمانون أرذل العمر في العصور الماضية ، يصحبها عادة عجز في وظائف الأعضاء ، وخرف في التفكير ، وإن كنا نجد عدداً من المعمرين [1] في الجاهلية قد حافظوا على قوام العقلية وحواسهم كلبيد بن ربيعة ، وعبيد بن شريه الجرهمي الذي بعث معاوية في طلبه ليسمر معه بذكر تواريخ القدماء من حمير وتبع .

ولقد امتازت حياة الجماعات الفطرية ببساطتها في المأكل والمشرب والملبس وقربها من الطبيعة بهوائها الطلق ، وشمسها المحرقة وأمطارها المغرقة ، وخلوها من ترف العيش ولينه ، مما أكسب الجسم كثيراً من المناعة ضد الفناء . لهذا كانت أجسامهم أصح ، وأعمارهم أطول ، ونجا منهم من الموت — في سن الطفولة — أطول . فإن أمراض الطفولة في الجماعات الفطرية كانت مريعة تحصد الأطفال حصداً مما تغلب عليه العلم الحديث فارتفعت نسبة الأحياء بينهم ، وحارب العلم كثيراً من الأمراض التي كانت تترك في الأطفال عاهات دائمة وانتصر في حربه غير أن من مثالب الحضارة الحديثة ، إضعافها مناعة الجسم بما أمدت الإنسان من ترف ولين عيش ، وإذ كانت قد أمدت الإنسان كذلك بوسائل

(١) من الكتب التي وعدته « كتاب المعمرين » لابي حاتم السجستاني المتوفى منتصف القرن الثالث الهجري . وقد نشره المستشرق جلدزيهر في ليدن سنة ١٨٩٩ م .

مساعدة لما ضعف من حواسه كالمناظير والمسامع [1] . وتدل الاحصاءات على أن متوسط عمر الانسان في العصر الحاضر قد زاد إذا قورن بمتوسط العمر في الماضي .

وبعد ، فمن مميزي العصر الحاضر الذين ما زالوا يحدثون بنشاطهم الجسمي والعقلي ويهبون العالم آراءهم الانسانية المتحررة الحرة ، الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل . فلقد ولد في أسرة ارستقراطية سنة ١٨٧٢ ، وورث عن أبيه لقب « لورد » ، وإن كان هو أغنى بانتمائه العلمية وشهرته وإنتاجه من أن يحتاج إلى هذا اللقب ، الذي قدر أن يطلق عليه حينما يقدم للجمهور محاضراً أو مناظراً أو مذيعاً أو كاتباً .

ولقد أتم دراسته في جامعة كمبردج في الرياضيات وعلم الأخلاق واتجه منذ تخرجه إلى الدراسة والبحث والكتابة والنشر في هذه المواد ، فاتخذ لنفسه ميدان الفلسفة الرياضية والسياسة والأخلاق والاجتماع . وكان في مؤلفاته أصيل الرأي حره ، إما أن يقدم نظرية جديدة أو ينقد نظرية قديمة ، أو يهاجم رأياً اجتماعياً فاسداً ، أو يسخر من تقليد محترم لم يعد صالحاً . وتكاد لا تمضي سنة من حياته دون أن ينشر كتاباً جديداً يضم مبدأ أو فكرة عالية جديدة .

☆

وتنحصر سياسة بحوثه العلمية في إيمانه المطلق بسلطان العلم وحده وأن كل شيء في هذا العالم ، والعوالم الاخرى ، يجب أن يخضع لسلطان العلم والتجربة والمنطق . وهو فيلسوف واقعي عملي جريء يرى أن هذا العالم البشري يكوّن وحدة اجتماعية ووحدة طبيعية ، وأن المجتمع البشري الكبير خاضع لقوانين اجتماعية تشبه إلى حد ما قوانين الطبيعة من حيث المؤثر والأثر ، وأن مهمة الفيلسوف هو أن يكشف عن هذه القوانين الاجتماعية ، ويستخدمها لخدمة الجماعة البشرية أي في سبيل إسعادها ، وأن الفيلسوف لا بد له في العصر الحاضر من أن يكون ملماً بجميع العلوم الطبيعية والرياضية حتى يفيد منها في فلسفته وتفكيره ، وتدبير الخطة الصالحة لنظام اجتماعي عالمي يسعد البشر . وهو لهذا لا يبدأ بالتقاليد القديمة أو الأديان أو النظم السياسية إذا كانت لا تحقق حرية الفرد وسعادة الجماعة ، أو تقوم حائلاً دون تقدم البشر . وهو دائم الهجوم على النظم السياسية التي تضحي بالفرد وحريته ، في سبيل تحقيق مطامع القادة أو رجال الحكم ،

(١) المسامع جمع مسماع كمنظار الآلة تحط الآذان لتحسين السمع .

لذلك كانت كتاباته داعماً ضد الفاشية والنازية والشيوعية ، وكان من أنصار الاشتراكية ، ورفع مستوى الفرد وإزالة الفروق التقليدية ، وتمتع كل مواطن فرصاً تمكنه من تنمية مواهبه واستعداده .

لقد عاش في أواخر القرن التاسع عشر ولا يزال يتمتع بحياته في هذا القرن إلى اليوم فهو قد عاشر عهوداً سياسية ونظماً اقتصادية مختلفة قامت في بلاده وغيرها من العالم ثم اختفت أو بقيت ، وكان بالرغم من هذا — ولا يزال — يؤمن بمبدأ وحدة العالم البشري واشتراك مشاكله في أصل واحد هو الفقر والجهل والتعصب الديني والجنس وفقدان الحرية . وما دامت المشاكل العالمية متشابهة ، والمجتمع البشري وحدة متعاونة فإن حل هذه المشاكل يحتاج إلى مبادىء عالمية مشتركة يجب أن تقبلها كل الدول فتطبقها كمبادىء معقولة وتكيف تطبيقها وفقاً للظروف المحلية لكل . وهو يرى أن السعادة البشرية ليست حلماً بعيد التحقيق ، ولكنها حقيقة يمكن الوصول إليها . فللانسان والجماعات حاجات ضرورية يمكن إكفاؤها بالطرق المشروعة وباستخدام القوانين العلمية والوسائل الميكانيكية الحديثة . فاذا ما أقر مبدأ حق كل فرد وكل جماعة في أن تعيش سعيدة مكفية الحاجات وقبل هذا المبدأ أفراد العالم وأممه المختلفة ، كان من الممكن اتخاذ الأساليب السلمية المشروعة لتحقيق هذه السعادة .

وإذا كانت قيمة المرء في الحياة تقدر وتقاس بحسب ما يقدم للانسانية من خدمة ، فان اللورد رسل — بالرغم من جهوده الطويلة في سبيل الانسانية — يقول : لست أزعم أنني استطعت أن أقدم من الجهود والخدمات لحل المشاكل السياسية والاجتماعية شيئاً ذا قيمة عظيمة .

☆

وللفيلسوف برتراند رسل حفيد لم يبلغ عمره بعد سنة واحدة ، ولذلك فهو حين يتمنى لحفيده أن يعيش ثمانين سنة أو أكثر مثله يتساءل : ما نوع الحياة التي سيحياها هذا الحفيد ؟ هل سيستمر العالم في انحداره إلى هوة الفناء التي تواجهه الآن أو سينتبه العالم إلى هذه الهوة المهلكة فيرجع إلى رشده ويتدارك الأمر ، ويحاول أن يعيش حياة جديدة سعيدة ؟ وهو يقول جواباً عن هذا السؤال : إنني لا أستطيع الجزم بما سيؤول إليه العالم ، وأشعر بشعورين مختلفين وفقاً للظروف التي أكون فيها عندما أفكر . ففي الأيام المظلمة ، وفي الأزمات العالمية ، أرى حرباً ثالثة تهدد العالم ، وتنتهي

به لا إلى سلم دائم ، ولكن إلى تخريب المدائن الأوربية ، وتحويل الحقول إلى صحارى ، وخروج البيض من إفريقيا نهائيًّا ، وسيرورة آسيا أفقر مما هي عليه الآن ، وثورة أمريكا الجنوبية على الولايات المتحدة ، التي ستصبح حينذاك ، أطلالاً باقية شاخصة كأطلال الامبراطورية البيزنطية تميز في علم الماضي ، ومجد الماضي . وفي الأيام السعيدة ، وعندما يختفي خطر الأورمات من الجو العالمي ، أرى الروسيا والولايات المتحدة تتقاربان ، ويزول ما بينهما من شبهات ، وأرى قيام سلطة حكومية عالمية أقوى وأقدر من « هيئة الأمم المتحدة » ، تستطيع أن تجعل السلام في العالم حقيقة واقعية . وأرى الشيوعية وقد فقدت حدّتها وجبروتها . وأرى الأجناس البيضاء من البشر قد اعترفت للأجناس الملونة والسوداء بحق الحياة والمساواة معها . ورأى العلوم وقد اتخذت لخدمة البشر وسعادته ، بدلاً من إهلاكه وإشقائه .

✲

وهو يقول : لست أدري أي الطريقين سيسلك العالم ، طريق الخير والسعادة أم طريق الشر والفناء ؟ كلا لست أدري ما يخبئه المستقبل ، ولكن أدري شيئاً واحداً هو أن العالم لا بدّ سيسلك واحداً من هذين الطريقين .

لم يعيش برتراند رسل في القرنين من عمره ، بعد أن اعترف العالم بجهوده في سبيل الخير الانساني منذ سنتين ، فعبّر عن هذا الاعتراف بصورة عملية ومنحه جائزة نوبل الأدبية ، وإنّا لنرجو أن يطيل الله في عمره ، ويكثّر من أمثاله ، وأن يسخّر للاصغاء إلى آرائه العالمية الفاضلة قلوب الساسة المستعمرين ، فيتوبوا إلى رشدهم ويدعوا الضعفاء من الشعوب والأفراد يتمتعون بحقهم في الحياة الآمنة السعيدة .